# وسطية الأخلاق

وإذا نظرنا إلى الأخلاق فى الإسلام وجدناها وسطاً بين طرفين، كل طرف يعتبر رذيلة فالكرم وسط بين التبذير والبخل، والشجاعة وسط بين التهور والجبن، والعزة وسط بين الكِبْر والذلة.

وجاء الإسلام يؤكد على الوسطية بتجنب التشدد والتساهل ، وأن يعمل الإنسان لدنياه كأنه يعيش أبداً، وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غداً.

وعلى الإنسان أن يعمل على تزكية نفسه من الانحراف أو المغالاة ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (١).

وأمر الإسلام والمسلمين أن يتمتعوا بالطيبات وألا يحرموا أنفسهم وفى الوقت نفسه ألا يسرفوا، قال سبحانه:

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (٢).

---

(١) سورة الشمس، الآيات (٧ - ١٠).

(٢) سورة الأعراف، الآيتان (٣١ ، ٣٢).

ووجَّه الإسلام إلى الأخذ بما فى الدنيا من الحلال مبتغياً فيها الدار الآخرة .

فقال سبحانه :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[1] .

***

(١) سورة القصص، آية (٧٧).

# المسئولية

# بين الفرد والمجتمع

كل إنسان مسئول عما يفعل ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (١) وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (٢).

ومع هذا فإن هناك مسئولية جماعية حين يقف الرأى العام من مقاومة منكر أو الدفاع عن حق، فيكون له أكبر الأثر فى مقاومته.

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال:

**« مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ،فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعاً»** (٣).

---

(١) سورة المدثر ، آية (٣٨).

(٢) سورة الإسراء، آية (١٥).

(٣) رواه البخارى.

# الاعتدال

# بين المادية والروحانية

الإسلام هو دين اليسر والسماحة، تضمنت تعاليمه القويمة ومبادئه السمحة ما فيه سعادة الناس دنيا وأخرى، وهو دين ينظم العلاقات القائمة بين البدن والنفس، أو بين متطلبات الجسد وبين أشواق الروح فى الإنسان.

ففى كل إنسان جانبان : أحدهما مادى يتطلب الطعام والشراب والملبس والمسكن والزواج، وما إلى ذلك مما جرت عليه سنة الحياة.

والجانب الآخر : روحىٌ يتطلب صقل النفس وتهذيب الروح، والاتجاه إلى الله يهذب النفس وينقيها ويصل بها إلى مرتبة التقوى، كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١).

وغير ذلك من العبادات التى شرعها الإسلام، وغير ذلك من الطيبات التى أباحها الإسلام للإنسان حتى يتواءم نظام البدن والروح ولا يحدث بينهما تفرقة أو انفصال.

---

(١) سورة البقرة، آية (١٨٣).

والغلو فى أحد الجانبين خروج عن سواء السبيل، والتقصير فى أحد الجانبين تضييع لحقوق يجب أن تراعى، وإهمال لأوامر لها أهميتها ومنزلتها.

ومن هنا كان نداء الإسلام معتدلاً وقائماً على أساس تنظيم العلاقة بين البدن والروح، وإذا استقام الأمر وانتظمت الحال انتظمت العلاقات الأخرى، وأخذ الإنسان طريقه إلى ربه سبحانه وتعالى فى اعتدال لا عوج فيه وفى انتظام لا غلو فيه ولا تقصير.

فلا رهبانية فى الإسلام ،ولا عسر، ولا حرج ، ولكنها التشريعات الصحيحة التى أبطلت ما كان عليه بعضهم من رهبانية وما حاوله بعضهم من عزل الدين عن الحياة، وإذا عزل الدين عن الحياة ضلت طريقها وتخبطت فى شكوك وأوهام .

فالدين بمبادئه ونظمه، بتعاليمه وقيمه يضىء للحياة طريقها ويبعث فى جوانبها التفاؤل والأمل ويجعلها موصولة بالخير الدائم الذى لا ينقطع، وبالفعل المستمر الذى لا يتوقف.

وعن تلك الرهبانية التى لم يرعها أهلها تحدث القرآن الكريم، فقال الله تعالى:

**﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا**

**ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ (١).

وفى السنة الشريفة تحذير من تلك الرهبانية وترغيب فى إعطاء الجسم حقه من الراحة ومن طيبات الحياة.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن نفراً من أصحاب النبى ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه فقال: **« ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »**(٢).

وقال الله تعالى: **﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾** (٣).

وقد وجَّه القرآن الكريم أنظار المسلمين وقلوبهم إلى حقيقة هذه الحياة الدنيا وأنها لعب ولهو وزينة، والناس فيها متفاخرون ومتكاثرون، ولكن نهايتها إلى زوال وآخرتها إلى فناء، فلا بقاء لها ولا خلود فيها وكل ما عليها

---

(١) سورة الحديد، آية (٢٧).

(٢) رواه مسلم.

(٣) سورة القصص، آيه (٧٧).

عرض زائل، فليس لإنسان أن يتكالب عليها أو أن يتزاحم على حطامها ويتقاتل على بريقها، وإنما اللائق بالإنسان أن يكبح جماح نفسه فيعمل لآخرته، وليس معنى هذا أن يهجر دنياه أو أن يتركها ويهملها؟ لا ، وإنما يوفق بين دار العمل والتكليف، وبين ما تتطلبه دار الجزاء، الدار الأخرى التى هى خير وأبقى، يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ (١).

وحين يقصر الناس اتجاههم فى الحياة على طلب المال والولد والمنصب فإنهم حينئذ يتجهون اتجاهاً مادياً بحتاً . . والإسلام لا يحرم التمتع بالطيبات، وينادى بعمارة الحياة بالمال والولد ولكن على شرط أن تكون قائمة على أساس من الفضائل والمثل التى نادى بها الإسلام، فهو ينادى بأن تشرق بالإيثار والبذل، بالتضحية والإخلاص ،بالتعاون والتساند على البر والتقوى.

قال الله تعالى :

﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا**

(١) سورة الحديد، آيه (٢٠).

﴿ وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ (١).

وبيَّن الله سبحانه وتعالى أنه لم يحرم زينة الله التى أخرجها لعباده، ولا الطيبات من الرزق، فقال جل شأنه:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (٢).

وأما محاربة الإسلام للمادية الطاغية البحتة فذلك لأنها نأت عن القيم الرفيعة والآداب العالية والمثل الحية، وأصبح هؤلاء الماديون المغالون يمثلون نشاطاً جامداً خالياً من الروح والمعنى بعيداً عن المبادئ السامية، بل حرباً على المعانى الإنسانية وعلى الفضائل الكريمة.

إن هؤلاء الماديين قد ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ويزعمون أنهم يفعلون فعلاً حسناً ويقومون بإصلاح الحياة، لقد انطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾(٣).

وأما السائرون على منهج الإسلام فى اعتداله بين الطرفين بدون إفراط أو

---

(١) سورة الكهف ، آية (٤٦).

(٢) سورة الأعراف ، آية (٣٢).

(٣) سورة الكهف ، آية (١٠٤).

تفريط، ومن غير غلو ولا تقصير، فإن الله سبحانه وتعالى يزيدهم هدى على هداهم. قال سبحانه :

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ (١).

تلك حقيقة قرآنية لا يرتاب فيها امرؤ ومعه عقله، فالمهتدون السائرون على الحياة الذين يزيدهم الله هدى وبهم يشرق المجتمع الإسلامى بالمعانى النبيلة الفاضلة ، والذين لا تشدهم الحياة الدنيا ولا تجذبهم بزخارفها هم الذين فطنوا لدورهم فى الحياة ومهمتهم السامية فى المجتمع الإنسانى، ومن أجل ذلك هم حريصون على أن يتمثلوا مبادئ الحق، وأن يرتادوا سبل الخير والإصلاح، وهم بهذا كله جديرون لأن يمكِّن الله تعالى لهم فى الأرض.

وقد رسم القرآن الكريم صورة مشرقة لركائز التمكين فى الأرض وهى تقوم على المبادئ الآتية :

**أولاً** : توثيق الصلة بالله سبحانه وتعالى، بالقيام بأداء أوامره واجتناب نواهيه، والإعلان عن ذلك إنما يتمثل فى القيام بالصلاة التى هى عنوان الطاعة لله سبحانه وتعالى، فالصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين، وهى تكف صاحبها عن الفحشاء والمنكر، كما

---

(١) سورة مريم ، آية (٧٦).

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [1] ، وهى الصلة الوثيقة بين العبد وخالقه الكبير المتعال.

**ثانياً** : ربط الصلة بالمجتمع ونشر وسائل التكافل الاجتماعى تأكيداً وتنمية للعلاقات الإنسانية الفاضلة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وعلى قمة هذه العلاقات أداء الزكاة.

**ثالثاً** : المهمة الكبرى التى تتطلب الغيرة من كل مسلم على دينه ودعوة الغير إلى الرشد والخير بالحكمة والموعظة الحسنة والعمل على نشر فضائل الإسلام ومبادئه عن طريق الدعوة إلى الله أمرًا بالمعروف ونهياً عن المنكر.

قال الله تعالى:

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [2].

إن ركائز التمكين فى الأرض تعنى القيام بواجب الإنسان المسلم تجاه خالقه سبحانه وتعالى وتجاه نفسه، وتجاه المجتمع الذى يعيش فيه.

كما يجب على كل مسلم أن يدرك أهمية الوقوف عند معالم الحق والخير بحيث لا يميل ولا يحيد ولا ينحرف يمنة أو يسرة، والوقوف فى مواجهة

---

(١) سورة العنكبوت ، آية (٤٥) .

(٢) سورة الحج ، آية (٤١) .

التيارات المادية الجارفة التى تشكلت بأشكال مختلفة وتسمت بأسماء متباينة متخذة بعض المذاهب الفاسدة مجرى لها أو بعض النظريات الوافدة مذهباً وطريقاً، وفى هذا تضييع للقيم وحرب للإسلام .

ومقاومة هذه التيارات الوافدة ـ من شيوعية وقاديانية وبهائية وغير ذلك من المذاهب الهدامة ـ من أهم ركائز التمكين فى الأرض لأنه باب واسع من أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى جعله الله سبحانه وتعالى من أهم دعائم خيرية هذه الأمة فى قوله سبحانه وتعالى :

**﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾** (١) .

ويقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** »(٢) .

## رد بعض الشبهات :

وقد أثار أعداء الإسلام وخصومه بعض الشبهات يحاولون بها أن يتهموا الإسلام بأنه يعادى الناحية الروحية، وهى ـ بدون شك ـ شبهة واهية لا أساس لها من الصحة، فإن التشريع الإسلامى جاء وافياً بحاجات البدن

(١) سورة آل عمران ،آية (١١٠) .

(٢) رواه مسلم .

والروح، وبتنظيم الجانبين والاعتدال فيهما بلا إفراط أو تفريط، فقد وجَّه القرآن الكريم جميع المسلمين إلى مراعاة مطالب الدنيا والآخرة حتى فى دعائهم فقال سبحانه وتعالى :

﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[1].

ونهى القرآن الكريم عن تحريم الطيبات حفاظاً على جانب الاعتدال بين المادة والروح كما حرم الاعتداء ومجاوزة الحد فى ذلك، بل على الإنسان أن يأكل مما رزقه الله من الحلال الطيب على أساس من التقوى والإيمان وفى ضوئهما.

قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [2].

ويركز الإسلام على توجيهه للمسلمين محذراً لهم أن تغرهم الحياة الدنيا

---

(١) سورة البقرة ، الآيات ( ٢٠٠ ـ ٢٠٢) .

(٢) سورة المائدة ، الآيتان ( ٨٧ ، ٨٨).

بماديتها ومباهجها، وأن الأموال والأولاد فتنة وعند الله عظيم الأجر للمخلصين فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٢).

وقد وضح الإسلام أهمية طلب الآخرة وضرورة العمل لها ، فمن كانت الآخرة همه، وعمل لها جمع الله له ما يريد، وجعله غنى النفس بالإيمان وتأتيه الدنيا منقادة راغمة.

وأما الذى ينكب على المادة يجمعها ويجعل الدنيا همه فإن الله يجعل الفقر بين عينيه ، ومهما واصل التعب والكد فى سبيلها فإنه لا ينال منها إلا ما قدره الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة الأنفال ، آية (٢٨).

(٢) سورة آل عمران ، الآيتان (١٤، ١٥).

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من كانت الدنيا همه فرَّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة همه جمع الله أمره وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى راغمة** » (١) .

وحياة السلف حافلة بالإيثار والبذل والتضحية والمعروف حتى وإن ترتب على ذلك بذل كل ما يمتلكون.

نعم، الإسلام دعا بالتوسط كما سبق . . قال الله تعالى :

﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ** ﴾ (٢).

ولكن سلفنا الصالح فى نظرتهم الإيمانية الفاحصة يدركون قيمة ميراث الأبناء من بعد . . وخطورة المادة حين يقوى جانبها ويشتد وحين يمسك الأبناء بها وينحرفون بسببها.

فمن الناس من يورث أبناءه أموالاً طائلة وعقارات وفيرة ظناً منه أنه حين يفارق الحياة يفارقها وهو مطمئن عليهم من الفقر، وينسى أن الفقر من الإيمان هو أشر المخاوف، ومن الناس من يورث أبناءه إيماناً صادقاً وعملاً صالحاً وسلوكاً قويماً ولم يترك لهم من المال شيئاً؛ فإذا بثروة الإيمان والعمل الصالح تجعلهم أغنياء فى الدنيا وفى الآخرة.

---

(١) رواه البخارى .

(٢) سورة الإسراء ، آية (٢٩) .

ها هو ذا نموذج من السلف الصالح إنه الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، لقد قال له مسلمة بن عبد الله عند مرض موته : يا عمر لقد تركت أولئك لا شيء عندهم فيصبحون فقراء وما كان هذا يصح منك يا عمر، فرد عليه قائلاً :« والله ما منعتهم حقاً هو لهم، فبنىً أحد رجلين : إما رجل يتقى الله فسيجعل الله له من كل ضيق مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، وإما رجل مكب على المعاصى فإنى لم أكن لأقويه على معصية الله».

إن الإسلام دعوة إلهية لسعادة البشر دنيا وأخرى، وفى قوانينه الرشيدة أمان للنفس والمال والعرض، وفى ظل تعاليمه السمحة المضيئة تشرق حياة الناس بالخير والرشد والحق والسعادة ، والله هو الهادى إلى سواء السبيل.

***

# إن لربك عليك حقّاً
# ولنفسك عليك حقّاً

## ـ بين سلمان وأبى الدرداء ـ

قال الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ: حدثنا محمد بن بشار حدثنا جعفر بن عون حدثنا أبو العميس عون بن أبى جحيفة عن أبيه قال : آخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال له : كل، قال : فإنى صائم، قال : ما أنا بآكل حتى تأكل، قال : فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال : نم ، فنام ثم ذهب يقوم فقال : نم، فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن ،فصليا، فقال له سلمان :إن لربك عليك حقّاً ولنفسك عليك حقّاً ، ولأهلك عليك حقّاً فأعط كل ذى حق حقه، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له، فقال له النبى ﷺ : **صدق سلمان** ».

فى هذه القصة عدة دلالات، على سماحة الإسلام، وعلى دقة التشريع السماوى ، حيث كفل الحقوق التى يجب أن يراعيها الإنسان المسلم، فهناك حق الله تعالى يجب على الإنسان أن يؤديه ، وهناك حق للأهل على الإنسان يجب أن يقوم به ، وهناك حق للنفس على صاحبها يجب أن يتنبه إليه، وأن

يعطى كل ذى حق حقه، بحيث لا يشغله جانب على آخر، وبحيث لا يقصر فى حق على حساب الآخر.

ولقد بدأت هذه القصة ببيان صورة من صور المؤاخاة التى عقدها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وقد ذكر أصحاب المغازى أن المؤاخاة بين الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قد وقعت مرتين : الأولى قبل الهجرة بين المهاجرين خاصة على المواساة والمناصرة، فكان من ذلك أخوة زيد ابن حارثة، وحمزة بن عبد المطلب، ثم آخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار بعد أن هاجر، وذلك بعد قدومه المدينة..

وهذا نموذج لأخوين ممن آخى بينهم رسول الله ﷺ، وهما سلمان وأبو الدرداء، لقد ربط الإسلام بينهما برباط وثيق، فكانا يتناصحان على الخير، ويوجه أحدهما صاحبه إلى طريق الإسلام وهداه، وإلى ما ينبغى أن يكون عليه الإنسان المسلم من أداء حق ربه سبحانه وتعالى، وأداء حق نفسه وحق أهله.. ولقد زار سلمان أبا الدرداء فوجد امرأته رثة الهيئة، متبذلة، تلبس ثياب المهنة، تاركة للبس ثياب الزينة.

فقال لها : ما شأنك؟ وفى رواية الترمذى : يا أم الدرداء أمتبذلة ؟ فأجابته قائلة : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا، وذلك لأنه يجهد نفسه فى العبادة، ويعزف عن طيبات الحياة، وعن التمتع بزينتها الحلال ، ويعزف عن النساء.

ولما جاء أبو الدرداء، وصنع لسلمان الطعام، وقدمه إليه ليأكل، قال له سلمان: كل ، فقال أبو الدرداء : إنى صائم، وأبَى سلمان ـ وهو الضيف ـ أن يأكل من طعام أبى الدرداء حتى يأكل معه، وهدفه من وراء ذلك أن يصرفه عن رأيه وخطته التى يسير عليها فيما يصنعه من إجهاد نفسه فى العبادة، وفى غير ذلك مما شكته إليه امرأته، لقد قال سلمان له : ما أنا بآكل حتى تأكل ، فأكل ، وهذه ناحية من النواحى التى كان يلزم بها نفسه، وذلك بالصيام.

وهنا ناحية أخرى : وهى قيام الليل، إنه كان يأخذ بالقيام ولا يعطى جسده قسطاً من الراحة، ولا يعطى نفسه حقها فى النوم، ولا يعطى أهله كذلك، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، قال : نم ، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال : نم، فلما كان من آخر الليل، قال سلمان : قم الآن، فصليا، وبهذا التصرف العملى أراد سلمان توجيهه إلى ما ينبغى أن يتبعه من حق الله وحق نفسه وحق أهله، وعندئذ واجهه بالحقيقة وأرشده إلى ما يحسن اتباعه قائلاً له : إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذى حق حقه.

إن مقاييس التقوى والخوف من الله، ليست بأن يكلف العبد نفسه ما لا طاقة لها به ، وليست فى الانهماك فى العبادة فقد يورث هذا عدم الاستمرار أو التقصير فى الحقوق الأخرى ويقطع على الإنسان مواصلة السير فى الطاعة، ولكن مقياس الخشية والطاعة فى المداومة، وفى الإقبال على

العبادة بمحبة ورغبة، وتذوق لحلاوة الإيمان، ولما ذكر أبو الدرداء ذلك لرسول الله ﷺ قال له : **صدق سلمان** . .

وفى رواية الترمذى وابن خزيمة : « **ولضيفك عليك حقاً** » وعند الدارقطنى : « **فصم وأفطر ، وصل ونم ، وائت أهلك** » .

إن الإسلام دين اليسر فلا عسر فيه، دين الرحمة فلا حرج معه ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾[1] ، ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾[2].

وفيما رواه الإمام مسلم ـ بسنده ـ عن أنس أن نفراً من أصحاب النبى ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر؛ فقال بعضهم : لا أتزوج النساء، وقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه فقال : « **ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى** » . .

وهكذا أوضح الصحابى الجليل سلمان لأخيه المنهج الأمثل، والذى كان من أبى الدرداء إنما هو اجتهاد من نفسه وقد اتبع ما أشار به سلمان وما أقره عليه الرسول ﷺ ، وإن لهما مكانتهما التى وضحها الحديث الذى رواه

---

(١) سورة البقرة ، آية (١٨٥) .

(٢) سورة الحج ، آية (٧٨) .

مسلم عندما أتاهما أبو سفيان وهو كافر قبل الإسلام فى الهدنة بعد صلح الحديبية أتى على سلمان وصهيب وبلال فى نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. قال : فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبى ﷺ فأخبره فقال : « **يا أبا بكر ، لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك** » فأتاهم أبو بكر فقال : يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا : لا، يغفر الله لك يا أخى.

- ونستنبط من هذه القصة أهمية النصيحة للمسلمين وفضل قيام آخر الليل، ومشروعية تزين المرأة لزوجها ،وجواز النهى عن الأمور المستحبة إذا خيف منها الإفضاء إلى السآمة والملل وتفويت الحقوق الواجبة، وجواز الفطر من صوم التطوع ، وكراهية الحمل على النفس فى العبادة ، قال تعالى:

﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾(١).

***

(١) سورة البقرة ، آية (٢٨٦) .

# استقلال الشخصية

وتتجلى وسطية الإسلام فى استقلال شخصية المسلم، بحيث لا تذوب شخصيته فى الجماعة، وبحيث لا يكون انعزالياً، ولهذا كان من الملامح البارزة فى حياة الإنسان المسلم استقلال شخصيته، فهو يعتنق الحق ويسير على ضوئه، ويعمل فى دائرته، دون أن يكون هناك أى تأثير خارجى عليه، لأنه يؤمن بأن جزاءه منوط بعمله، فإحسانه لنفسه، وإساءته لها، وقد غرس الإسلام فى نفسه أصول الحق ليتبعها ﴿ **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** ﴾ (١)

وأنار القرآن الكريم الطريق أمام المسلم، مبيناً له أنه وحده الذى ينال مثوبة هدايته، وأنه وحده الذى ينال جزاء ضلالته، فلا ينجى اهتداؤه غيره، ولا يردى ضلاله سواه، وكل نفس وما حملت من وزرها، فلا تحمل وزر نفس أخرى، فلكل استقلاله وجزاؤه على حدة، قال سبحانه:

﴿ **مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾(٢).

---

(١) سورة الإسراء، آية (٧).

(٢) سورة الإسراء، آية (١٥).

وقد نعى القرآن على أولئك الذين وقعوا أسرى العادة والإلف تجافيهم عن الحق، وضرب مثلهم بمن ينادى على حيوان يسمع الصوت ولا يفهم له معنى، فهم فى انهماكهم فى التقليد الأعمى، ووقوعهم فريسة التبعية البلهاء كمثل الصم والبكم، قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١).

وهذا الصنف من الناس لم يعط شخصيته استقلالها، ولم يمنحها حريتها فى البحث عن الحق، وإنما حبسها بين أسوار التقاليد الموروثة، توبقها العادات البالية، وتمتهن كرامتها وإنسانيتها.

وتتابع السنة الشريفة شخصية المسلم فى سلوكها بالتقويم والتهذيب، لئلا تتأرجح بين مد الحياة وجزرها، فتتدهور قواها المعنوية، متابعة كل ناعق، ومنادية كل إنسان: أنا معك ـ محسناً كان أو ظالماً ـ:

روى الإمام الترمذى بسنده عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا**» (٢).

---

(١) سورة البقرة، الآيتان (١٧٠، ١٧١).

(٢) رواه الترمذى.

فإذا كان الله تعالى قد أعد المسلم إعداداً محكماً، وهيأه لأسباب الحق والفلاح، مما ألهمه من رؤية واضحة للخير حتى يتبعه، وللشر حتى ينأى عنه، فليس للمسلم أن يكون إمعة، ولم تعد له حجة فى تعطيل ما أودعه الله فى حسه ووجدانه، فكيف به يقف على مفترق الطرق، يميل مع رياح الحياة حيث تميل، لقد سوى الحق نفسه وألهمها فجورها وتقواها، قال تعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (١).

وفى استقلال الشخصية حماية لمقومات الحق والخير التى أودعها الله فى الإنسان، فلا يتأثر بالعوامل الخارجية والمؤثرات المحيطة به، فإذا كان قاضياً أو شاهداً أو مدرساً أو قائماً بالإصلاح بين الناس، أو مقوماً لأعمال البعض، أو ما إلى ذلك من مسالك الحياة التى يرتادها، فإن عليه أن ينظر إلى الحق بغض النظر عن أى عامل آخر، أو أى مؤثر خارجى، فإذا قام بالحكم بين الناس أو القضاء فيهم، أو طلب منه أداء شهادة، أو فصل فى خصومة، فعليه أن يتحرى جانب الحق، فلا تؤثر عليه صلة قرابة أو نسب أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (٢).

---

(١) سورة الشمس، الآيات (٧ - ١٠).

(٢) سورة الأنعام، آية (١٥٢).

وكما دعا الإسلام إلى المحافظة على استقلال الشخصية في قول العدل دون التأثر بصلة القرابة أو ما يدعو إلى الانحياز، فكذلك حذر من أن تكون الكراهية والبغضاء من دواعي الانحراف عن العدل والحق، فقال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

فشخصية المسلم تتنافى مع الظلم، فيقيم العدل ولو على نفسه أو أقرب الناس إليه ، وتتنافى مع الباطل فيقول الحق ولو على نفسه، ويعدل مع العدو كما يعدل مع القريب والحبيب ، فهو لا تحكمه تبعية تهدم شخصيته ، ولا يجوز على عقيدته الهوى، ولا تتسرب المحاباة إلى داخله ، يحيا بين الناس قواماً بالقسط شاهداً لله، ولو على نفسه أو والديه أو أقربائه، قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [2].

---

(١) سورة المائدة ، آية (٨).

(٢) سورة النساء، آية (١٣٥).

واستقلال الشخصيـة الذى يربى الإسلام أتباعه عليه، يعنى المحافظة على النفس من التـأثر بخصائص الغـير وأفـعاله التى لا تتـفق مع روح الإسلام، وتتنافى مع فضائله، أمـا الاستبداد بالرأى، أو التمـادى فى الخطأ، فليس فيه من قوة الشخـصية واستقلالهـا أدنى علاقة ، بل إن ذلك يتنافى معهـا تنافياً تاماً، فإن الرجوع للحق فضيلة، ولا يوصف من يرجع للحق بأنه لا شخصية له، بل إنه قوى الشـخصية فى ضبط النفس، وكـبح جماحهـا، والاتجاه بها صوب الحق، فلا يتجمد عند الخطأ، بل يفىء إلى الصواب أينما كان.

وكما أن استقلال الشخصية لا يتنافى مع الرجوع للحق، فإنه - كذلك - لا يتنافى مع التـعاون، ومـشاركة الجـماعـة الإسلامـية، فـالمراد باستـقلال الشخـصية ألا يذوب سلوك الفـرد فى سلوك آخر، وألا تذوب الجمـاعة فى جمـاعة أخرى، فلكل إنسـان مقومـاته وقدراته الخـاصة، وحين يسلب هذه المقومات فلا تكون له حريته ورغبته المسـتقيمة المخلصة، فإنه يقوم حين يقوم للعمـل وهـو مسـوق إليـه، ومكره عليـه، فلا يستشـعر المتـعة بأداء العمل، ولا يتذوق الرغـبـة الدافعـة إلى إتقانه، ومن ثم يفـقد روح النشاط والحـيوية ولا يقبل على العمل بجد وفاعليـة، بل يؤدى عمله وهو مكره متبرم، وأيضاً لو ترك الإنسان بلا توجيه سديد ، وأطلق لشخصيته العنان دون رعاية وضبط ومن غيـر حدود، فإن ذلك شر مسـتطير، لما يترتب على سلوكه بلا مقاييس ما يترتب من انطلاق نوازعـه النفسية، فتنمو الأنانيـة والأثرة ويتجاوز الحدود بلا رادع أو ضابط.

ومن أجل هذا كله أرسى القرآن للشخصية الإسلامية معالم محددة لا تتعداها، بحيث يجد المسلم ثواب عمله الصالح، ويتحمل تبعة إساءته، قال تعالى : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** ﴾[1] هذا بالنسبة للفرد، فشخصيته محوطة بدائرة الحق، والعمل الصالح.

وأما بالنسبة لعلاقته مع الجماعة الإسلامية وعلاقة الناس مع بعضهم، فإن تلك العلاقات مع ما وفره الإسلام لها من الاحتفاظ بالمقومات، بحيث لا تذوب فى الآخرين فإنه لا يمنع الإنسان أو الجماعة من التعاون والمشاركة، بل أمر بذلك إذكاء لروح التعاون، وإبقاء لوحدة الأمة، وإثراء لها بالعمل المشترك والتضافر المثمر، وذلك كله يتم فى إطار البر والتقوى، وبعيداً عن الإثم والعدوان كما قال الله سبحانه :

﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾[2].

ويتضح مما سبق أن استقلال الشخصية يعنى الاحتفاظ ـ للإنسان ـ بقدراته ومقوماته الخاصة بحيث لا يعتدى عليها من الخارج، والاحتفاظ بالثقة بالنفس حين يكون على الحق، فيحترم اقتناعه به ويقوى على ضبط نفسه وتوجيهها إلى الخير حين لا يكون فى جانبه فيرجع للحق، ويلبى نداء التعاون مع

---

(١) سورة فصلت، آية (٤٦) .

(٢) سورة المائدة، آية (٢).

الجماعة حين يحتاجون إليه، ولا يعتبر هذا أو ذاك خروجاً عن استقلال الشخصية، وإنما الخروج أن يكون إمعة بين الناس، مشتت الرأى، متطفلاً على أحاديث الناس وأخبارهم ورحم الله الشافعى حيث قال :

« ولست بإمعة فى الرجال أسائل هذا وذاك : ما الخبر ؟ ».

***

# عزة فى غير تكبر

وفى تحلّى المسلم بسمة العزة وسطاً بين الذلة والتكبر، فلا يذل نفسه لأحد، ولا يتكبر على أحد، فمن ملامح شخصية المسلم العزة فى غير تكبر، فالمسلم لا يذل ولا يستكين لأحد، وعزته هذه تتنافى ـ من أول وهلة ـ مع الغرور والاستعلاء، وليس فيها من التكبر أدنى خيط ، لأن الإسلام ما نادى بالعزة إلا ليحطم صلف الذين يلبسون ثوب الكبرياء، فلا يجعل لهم سطوة على الضعفاء، ولا هضماً لحقوق البسطاء الكادحين .

وكما قاوم الإسلام الذلة والهوان، فقد ناهض الكبرياء، ونادى بالتواضع، فليس لأحد أن يتكبر، لأن الكبرياء لله وحده : ﴿ **وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾(١).

وفى الحديث القدسى، يقول الله عز وجل : « **العز إزارى، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما فقد عذبته** »(٢).

والمسلم حين يكون عزيزاً فى نفسه، لا يذل نفسه ولا يستذل أحداً، كريماً فى شخصيته فيرفع من قدر نفسه ولا يحتقر الآخرين، معنياً بمظهره ومخبره،

---

(١) سورة الجاثية ، آية (٣٧) .

(٢) رواه مسلم.

لا يداخله مثقال ذرة من كبر، لأن الرسول ﷺ قال : « **لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر**، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة؟ **فقال : إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق ـ** أى : رده ـ **وغمط الناس** » [1]. أى: احتقارهم .

وقد بيَّن القرآن الكريم لمن تكون العزة ؟ فى قول الله سبحانه :

﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [2]، ووجَّه الله تعالى عباده إلى طلبها، موضحاً أن طلبها لا يكون من مخلوق مهما كان مركزه أو جاهه، وإنما تطلب العزة من الخالق العظيم، وطريقها الإيمان والعمل، قال تعالى :

﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ [3].

فالقرآن يحدد ـ فى هديه الواضح ـ طريق العزة بالإيمان والعمل ، توحيداً لله تعالى، فلا يسأل الإنسان إلا الله، ولا يستعين إلا بالله ، وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، فالعمل الصالح المقبول يمثل طريق العزة بالنسبة للمؤمنين، وأما المشركون فيطلبون العزة الزائفة التى لا أساس لها من معبوداتهم التى لا تنفع ولا تضر، قال تعالى :

---

(١) رواه مسلم

(٢) سورة المنافقون، آية (٨).

(٣) سورة فاطر ، آية (١٠).

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾[1] .

كما ندد القرآن ببعض من آمن بلسانه ، فراح ينشد العزة عند غير المؤمنين فقال :

﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ ﴾[2] .

وإذا كان للعزة أثرها فى حياة المسلم حيث يكون قوياً بالله، لا تذل شخصيته لإنسان، فإن للعزة أثراً عظيماً فى الآخرة، يظهر فى المثوبة الحسنة، والجنة العالية، والمكانة العزيزة السامية، التى لا يغشى وجوه المؤمنين فيها غبرة ولا هوان، كما قال سبحانه :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[3] .

---

(١) سورة مريم ، آية (٨١) .

(٢) سورة النساء ، آية (١٣٩) .

(٣) سورة يونس، الآيتان (٢٦ ، ٢٧).

وكما أن الطريق إلى العزة إيمان وعمل، فإن فقدانهما، أو فقدان واحد منهما، يوقع صاحبه فى المذلة والهوان، فغير المؤمن، وغير الطائع العامل، يخشى على حياته ، ويخاف من الموت، ويتردد فى طلب النصرة ممن لا يملكها من الناس ،ويخاف على رزقه ويتنكب السبيل فى الوصول إليه فينزلق فى المهانة، ويريق ماء وجهه، لأنه فقد مقومات العزة الحقيقية من الإيمان والعمل.

ويرد القرآن على هذين الصنفين من طلاب النصرة أو الحياة وطلاب الرزق دون إيمان أو عمل، فيقول سبحانه :

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾[1] .

وتنادى السنة الشريفة جميع المسلمين - عندما يطلبون حوائجهم - أن يطلبوها بأنفس عزيزة، فإن الأمور تسير على حسب ما قدره الله، قال رسول الله ﷺ : « **اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس، فإن الأمور تجرى بالمقادير** »[2].

أما الذى يذل نفسه ـ عن طواعية واختيار ـ فقد حاد عن منهج الحق، وند

---

(١) سورة الملك الآيتان (٢٠ ، ٢١).

(٢) ابن عساكر فى تاريخ دمشق ، وفوائد تمام.

عن دائرة العزة وحظيرة الإسلام، قال صلوات الله وسلامه عليه : « **لا ينبغى لمسلم أن يذل نفسه، يتعرض للبلاء لما لا يطيق** » (١).

ومن أبرز معانى العزة ـ فى شخصية المسلم ـ غنى النفس، والعفة عن الدنايا، قال ﷺ : « **ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس** ».

فالمسلم سيد نفسه، يكبح جماحها، ويسيطر على هواها، فلا تحيد عن الحق، ولا تطمع فى الباطل، وتملى عليه شخصيته المعتدلة أن يتعفف عن السؤال ومد اليد، فاليد العليا خير من اليد السفلى، وأن يتعفف الموظف عن الوساطة فى وظيفته فالكفاءة هى الميزان الحقيقى، ويتنزه صاحب العمل عن الرشوة ، والتلميذ عن الإهمال والغش، والتاجر عن الجشع والخداع، والعامل عن الكسل والاستهتار، وبالجملة : تتعفف البيئة الإسلامية فى شخصيتها المستقيمة عن أكل المال بالباطل ، استجابة لنداء الحق:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** ﴾(٢).

وقد أرسى الإسلام قاعدة التكريم والعزة فى قول الله تعالى :

﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ**

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه .

(٢) سورة النساء، آية (٢٩).

﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (١).

ومن تكريم الله للإنسان ما يتصل بخلقته ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٢).

وقال سبحانه ـ مبيناً تكريمه للإنسان، وتكوينه فى أحسن صورة ـ:

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾(٣).

إن عزة المسلم وكرامته، تدعوه ليعيش فى دنيا الناس برسالة يحملها، وقيمة من القيم السامية يبثها فى الوجود، وغاية من الغايات الشريفة يطمح إليها، وهو فى حمل رسالته ونشر قيمه وسعيه وراء غاياته، ينعم بسكينة النفس، وطمأنينة القلب، وهدوء البال ،فيغمر الرضا جوانحه، ويعمر الحب وجدانه وأقطار نفسه، وتسرى العزة فى دمه وكل حناياه . .

هكذا يعيش المسلم حياته، وتتجاوب مع دنيا الناس أصداء نفسه، إنه صاحب رسالة، وناشد قيم، وساع إلى غايات لا كأولئك الذين يعيشون وكل همهم ملء بطونهم وإشباع شهواتهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، لا أثر لهم فى الحياة ولا وزن لهم فى المجتمع الإنسانى.

---

(١) سورة الإسراء، آية (٧٠).

(٢) سورة التين ، آية (٤).

(٣) سورة الانفطار، الآيات (٦ - ٨).

لقد انهارت موازين شخصيتهم، فلا يرون لأنفسهم مكاناً فى قافلة الحياة ولا يعرفون لأنفسهم قدرها، ولا يبصرون حكمة الله فيهم، ودواؤهم منهم وما يشعرون ، لقد صدق فيهم قول الشاعر :

**دواؤك فيك وما تبصر ودواؤك منك وما تشعر**

**وتزعم أنك جِرْم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر**

هذا وللبيت والمدرسة والمجتمع أثر بالغ فى تكوين الشخصية، وغرس مبادئ العزة والإباء، ومعانى الشهامة والنبل والشمم، حتى يشب الأبناء ومعهم من القيم أرفعها، ومن المبادئ أسماها، ومن الغايات أشرفها، وبهذا ترقى الشخصية الإسلامية وتأخذ دورها فى الحياة متطلعة إلى معالى الأمور، متخذة أفضل الوسائل وأعلاها، كما قال صلوات الله وسلامه عليه : « **إن الله كريم يحب الكرم، ويحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها** »، وقال ﷺ : «**إن الله يحب معالى الأمور وإشرافها..** » .

***

# الإنفاق فى غير إسراف أو تقتير

كما تتجلَّى الوسطية فى المعاملات المالية، وفى إنفاق المال بصفة خاصة فلا يسرف ولا يقتِّر، وللمسلم شخصيته المعتدلة، نحو المال الذى استودعه الله إياه، واستخلفه عليه فهو يتصرف فيه بالطرق المشروعة، من غير إسراف أو تقتير، سائراً على المنهج القرآنى الذى رسمه الله سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾(١).

فالتصرف المعتدل سمة الشخصية المعتدلة، التى تتحاشى الإفراط والتفريط، قال الله سبحانه :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٢).

إن الإسلام لا يمنع من التمتع بالطيبات، ولكنه يضع لها من الضوابط ما يصون شخصية المسلم من الإسراف فيها من ناحية، ومن التكبر والاستعلاء من ناحية أخرى، فالضابط الأول مادى ينظم حاجة الجسم حتى يظل صحيحاً

(١) سورة الفرقان، آية (٦٧).

(٢) سورة الإسراء، آية (٢٩).

معافى، والآخر معنوى أخلاقى ينظم طريقة استخدام الرزق، فلا ينحرف الإنسان بوظائف المال إلى الغرور والمكاثرة والمفاخرة.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **كل واشرب والبس وتصدق فى غير سرف ولا مخيلة** » (١).

إن امتلاء المعدة، والإسراف فى تناول الطعام والشراب، يجلب السقام ويثبط الهمة، ويطفىء توقد القريحة، لهذا نرى رسول الله ﷺ يحذر من الإسراف، فيقول : « **ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه** » (٢).

وفى لفظ ابن ماجه : « **فإن غلبت ابن آدم نفسه، فثلثاً لطعامه، وثلثاً لشرابه، وثلثاً لنفسه** » .

وقال لقمان لابنه : « يا بنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة ».

ويدرك بعض السلف القيمة الطبية فى عدم الإسراف فيقول : قد جمع الله الطب فى نصف آية فقال : ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾(٣).

وإذا كان التمتع بالطيبات جعله الإسلام مصوناً من الإسراف والاستعلاء

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، والإمام أبو داود.

(٢) أخرجه الترمذى وابن ماجه.

(٣) سورة الأعراف ، آية (٣١) .

فإنه صان الإنفاق على الغير، والسخاء والعطاء من آفتين : إحداهما نفسية، تعنى بكرامة الفقير، وعدم احتقاره بالمن عليه، وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[1].

والآفة الأخرى مالية، تتصل بنوع ما ينفقه ويجود به، فلا يقصد إلى الردىء والخبيث ينفق منه، بل عليه أن ينفق من الطيبات، قال الله سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[2].

وكما صان الإسلام جوانب البذل من الإسراف، والمن، وإعطاء الردىء، فإنه قد صان التصرف الإنسانى والإنفاق على النفس من الترف، والبذخ، لأن

---

(١) سورة البقرة، الآيتان (٢٦٣ ، ٢٦٤).

(٢) سورة البقرة ، آية (٢٦٧).

الترف يقضى على المروءة، ويدفع إلى كسب المال من أى وجه، وربما انزلق صاحبه فى طلبه إلى الجرائم والشرور، مشدوداً ببريق الزخرف الخلاب، أو المتعة الكاذبة.

ولهذا فإن المترفين بعيدون عن خلق الشجاعة والنجدة، والشهامة والمروءة ولا يمكن تحديد شخصيتهم، لأنها غائمة المعالم، لا يضبطها عقل، ولا يحكمها دين، وإنما تتحكم فيها غرائزها، فتنطلق لإشباعها، واستجابة ندائها، دون وازع أو رادع، والترف من أخطر ما يكون فى ضياع الأمم والمجتمعات وانحدارها، خاصة إذا قام المترفون وراء كل منكر، وجروا فى تيارات الفسق والعصيان ، قال الله تعالى :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾(٢).

والإنسان المترف المضيع لدينه، ضعيف الرجولة، مترهل الجسم فاقد الإرادة، بائر النفس، كالأرض البور، التى ضرب الجدب فيها أطناباً، فهى من الضحالة والجمود بحيث لا تنبت ولا تثمر، وحياة المترف ونفسه كذلك،

(١) سورة الإسراء، آية (١٦).

(٢) سورة هود ، آية (١١٦).

لا تنصرف إلا إلى الشهوات والمتع، فلا تعطى خيراً، ولا تبذل معروفاً ولا تتفاعل مع الحياة، ولا تتجاوب مع مواكبها المنطلقة الهادرة، إنها بور كما وصفها القرآن الكريم :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ (١).

وإذا كان الإسراف رذيلة ممقوتة، فإن الشح والبخل من أشد الرذائل خطراً على الفرد والجماعة فالبخيل يده مغلولة، يضيع حقوق الناس، ويعطل سير الحياة، ويوقف أعمال البر والخير، بل إنه يترتب على الشح من المضار والمساوئ ما يكون سبباً في سفك الدماء واستحلال المحارم، قال صلوات الله وسلامه عليه : « **اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**»(٢).

بل إن ضرر البخل لا يقتصر على الجماعات فحسب، وإنما يعود على نفس الإنسان البخيل ويرجع عليه بشره وخطره، قال الله سبحانه :

(١) سورة الفرقان، الآيتان ( ١٧، ١٨).

(٢) رواه مسلم.

﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ (١).

ويوضح الإسلام أثر الشح، وما يتسرب عن طريقه من البخل بالمال، والبخل بالنفس، والقعود عن الجهاد، والجبن، وهكذا إذا استولى الشح على النفس الإنسانية جردها من الفضائل وسد عليها كل صنائع المعروف ويكشف الرسول ﷺ عن هذا كله، مبيناً شر ما فى نفس الإنسان وأخطر ما ينطوى عليه من الرذائل فيقول : « **شر ما فى الرجل شح هالع وجبن خالع** » (٢).

وبهذا نرى كيف نقَّى الإسلام شخصية المسلم فى تصريفها المالى وإنفاقها، ودعا إلى إظهار أثر نعمة الله على الإنسان، روى الإمام النسائى - بسنده - عن أبى الأحوص عن أبيه قال : « دخلت على رسول الله ﷺ فرآنى سيِّئ الهيئة فقال النبى : **هل لك من شىء** ؟ قال : نعم ، من كل المال قد آتانى الله ، فقال : **إذا كان لك مال فليُرَ عليك** ».

وفى هذا كله عناية بالشخصية وتقوية للبناء الإنسانى، وتوثيق لوشائجه فى المجتمع.

***

(١) سورة محمد ،آية (٣٨).

(٢) رواه أبو داود.

# بين الخوف والرجاء

ومن تحلّى المسلم فى صلته بربه أنه يعيش وسطاً بين الخوف والرجاء ويتشكل الوجدان الإسلامى المعتدل، بين الخوف والرجاء، حيث يتوازن بناء الشخصية، فلا يؤدى به الرجاء إلى الإهمال، ولا يؤدى به الخوف إلى اليأس:

﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾(١).

وبين الخوف والرجاء، يستيقظ الضمير الدينى، محذراً لصاحبه من التردى فى مهاوى الفساد والتهلكة، ومرغباً له فى طريق الطاعة والنجاة، وبالرغبة والرهبة، تنمو فى أعماقه عواطف جياشة، وأحاسيس صادقة، مبعثها صحة العقيدة، وقوة الصلة بالله ، وهذه الصلة الوثيقة، هى التى تضفى على حياته الرجاء فى رحمة الله، وفى الوقت نفسه تحذره من عذابه :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (٢).

والاتجاه إلى الله بالرغبة والرهبة مع المسارعة فى الخيرات، سبيل لفتح الأبواب، وتحقيق الآمال، لأنه لا يستقيم على ذلك إلا من صدقت نيته،

---

(١) سورة يوسف ،آية (٧٨).

(٢) سورة الإسراء، آية (٥٧).

وصفت سريرته، وأشرقت حياته بالإيمان، ولقد أخبر الله تعالى عن زكريا عليه السلام، حين طلب أن يهبه الله ولداً، يكون نبياً من بعده، فسارع هو وأهله فى الخيرات ، وفى الدعاء رغباً ورهباً فأجاب الله دعاءهم وحقق رجاءهم، قال تعالى :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (١).

فهذا نموذج عال يقدمه القرآن، فيه تجلية لأثر الخوف والرجاء، وما ينبغى أن يكون عليه المسلم فى دعائه واتجاهه إلى الله.

وبين الخوف والرجاء، دائرة إيمانية مشرقة تنطفئ فيها المخاوف النفسية، وينبثق منها الأمن الروحى، حيث يكف الإنسان نفسه عن كل ما يغضب الله، خوفاً منه، ويسارع إلى مرضاته، رجاء رحمته، وعندئذ يظل مستشعراً ثواب الله وعقابه، وغفرانه وعذابه ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ (٢).

---

(١) سورة الأنبياء ، الآيتان (٨٩ ، ٩٠).

(٢) سورة الحجر ، الآيتان (٤٩ ، ٥٠).

وقال تعالى: ﴿ حم ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③ ﴾[1].

وكما دعا القرآن إلى الخوف والرجاء، ففى السنة الشريفة فيض غامر يستهدى به المسلم فى حياته، ويفتح أمامه باب الأمل والرجاء فى رحمة الله، روى الإمام مسلم - بسنده - عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال الله عز وجل: «سبقت رحمتى غضبى».

وفيما رواه أيضاً عن عمر بن الخطاب أنه قال: «قدم على رسول الله ﷺ بسَبْى فإذا امرأة من السبى تبحث عن صبى لها فلما وجدته أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟ قلنا: لا والله وهى تقدر على ألا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

وحتى لا يتكل الناس على الرحمة وجانب الرجاء، نجد أن رسول الله ﷺ يخبر عن وقوع العذاب من أمور قد يستهين البعض بها:

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلا هى أطعمتها ولا هى أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت هزالاً».

---

(١) سورة غافر، الآيات (١-٣).

قال الزهرى : لئلا يتكل رجل ولا ييأس رجل .

وتؤكد السنة المشرفة حقيقة الخوف والرجاء، ومدى ما عند الله من العقوبة والرحمة، حتى لا يتسرب الغرور أو اليأس إلى داخل النفس الإنسانية.

روى الإمام مسلم ـ بسنده ـ عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد** » (١).

وترسم السنة صورة كاملة الملامح لحياة الإنسان اليومية يكتنفها الخوف والرجاء، فى حركته وسكونه، فى يقظته ونومه.

ففيما رواه مسلم عن سعد بن عبادة: حدثنى البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجعْ على شقك الأيمن، ثم قل : « اللهم إنى أسلمت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت**».

وليس فى عنصر الخوف من الله إهدار الحرية واستقلالها، كما يدّعى أعداء الإسلام، فإن الخوف صمام أمن، وعاصم من الزلل، والتربية فى أمسّ

---

(١) رواه مسلم .

الحاجة إليه، ثم إنه ليس خوفاً من مخلوق وإنما هو خوف من الله، قال سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّمَا ذَالِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (١).

وعلى هذا المنهج يبعث الإسلام فى النفس روح الشجاعة، ويدفعه إلى الجهر بالحق، ويكفه عن الاسترسال فى الذنوب، أو الإهمال والأعذار.

ويقول السلف : ينبغى تغليب الخوف على الرجاء ما دام الإنسان يغدو ويروح فى الدنيا ،فإذا خرج منها حسن به تغليب الرجاء على الخوف عند ذلك .

ويرى البعض أنه إذا غلب الأمن من عذاب الله فالخوف أفضل، وإذا غلب اليأس فالرجاء أفضل، وما أروع ما قاله ابن القيم فى هذا :

« القلب فى سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر ، فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه ،فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قُطع الرأس مات الطائر، ومتى فُقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر».

***

(١) سورة آل عمران، آية (١٧٥).

# بين العسر واليسر

من أهم الملامح لشخصية المسلم، الثبات فى العسر واليسر، إن المسلم شاكر فى السراء، صابر فى الضراء، يبرهن على صدق عقيدته بالإنفاق فى الحالين ، يقول الله تعالى ـ فى وصف المتقين ـ :

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ (١) .

إن شخصية المسلم لا تهتز بالعسر، ولا تقنط بالضراء، كما أنها لا تضل ولا تطغى باليسر أو السراء، وإنما هى فى الموقفين سواء، وهذا شأن المسلم الذى قويت عقيدته، وأتت أكلها وثمارها، إنه شاكر فى السراء صابر فى الضراء، قال ﷺ : « **عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له** » (٢).

إن للمسلم خطاه الثابتة، التى يسير بها ومعه يقين يضىء له الطريق، وثقة تذيب كل هم أو حزن أو غم، فنظرته إلى الحياة ذكية واعية، ومواجهته لمشاهدها العديدة حازمة حاسمة، لا يشده بريقها، ولا يخدعه زخرفها، ولا يتعلق بمتاعها القليل:

---

(١) سورة آل عمران، آية (١٣٣).

(٢) رواه مسلم.

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (١).

إن حياة المسلم سلسلة متصلة الحلقات، من الابتلاءات والاختبارات، فمنها ما يكون ابتلاء بالنعمة ، ومنها ما يكون بالنقمة ، وتلك سنة الله فى خلقه، والعزائم المخلصة، ذات المعادن الأصيلة، حين تنصهر فى بوتقة الابتلاء بالبأساء والضراء تخرج وهى أشد عزماً، وأقوى إرادة، وأكثر بريقاً ولمعاناً، وعندئذ يأتيها نصر الله :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾(٢).

وموقف السلف من محن الحياة وابتلائها، موقف الحريص على عقيدته، المؤمن بقضاء ربه، الواثق من الفرج والمثوبة، يقول أحدهم :« وما أُصبت فى دنياى بمصيبة إلا رأيت لله فيها ثلاث نعم : أنها لم تكن فى دينى ، وأنها لم تكن أكبر منها، وأننى أرجو ثواب الله عليها ».

أما شخصية الإنسان التى لم تتهذب بالإسلام، ولم تصقل بمبادئه القويمة، فهى فى تطلع إلى فضل الله، ورجاء مُلحٍّ لنعمته، إذا نزل الضر، فإذا رفعه

(١) سورة النساء، آية (٧٧) .

(٢) سورة البقرة ،آية (٢١٤).

الله وأحاطت النعمة جوانب الحياة فإنه ينسى ما كان فيه، ولا يقيم حق الله فى نعمته، ولا يؤدى الشكر الواجب عليه حيالها :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ (١) .

إنه فى حال النعمة ينسى حق الله وحق العباد، ويظل فى إعراضه وبعده، فإذا مسه الشر فإنه يلهج بالدعاء. لقد خيمت على شخصيته الأنانية، وملأت الأثرة أقطار نفسه، فلا ينظر للحياة إلا بمنظار المنفعة الخاصة، يدور معها حيث تدور، ويبحث عنها فى كل الزوايا، لا يعنيه شىء سوى منفعته، وفى إطارها الضيق يعيش فى جو خانق، ومناخ لا يستقر :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ (٢) .

إن الطبيعة البشرية، فى صراعها الرهيب، وفى رغبتها الجامحة لمتطلبات حياتها تظل خطاها تلح فوق الدروب المتشابكة، بغية الوصول إلى أملها

---

(١) سورة الزمر، آية (٨).

(٢) سورة فصلت، آية (٥١).

وهدفها وتضع على مفترق الطريق أمنيات رطبة خضراء لو تحقق ما تصبو إليه النفس، أو جاء ما يهفو إليه الإنسان لملأ سيره كل المسالك، فكان وَصولاً للرحم باراً بالمحتاجين، سبّاقاً للبذل فى الملمات، ساعياً لقضاء مصالح الناس، محباً ودوداً لكل القلوب، لكنه عندما يتحقق رجاؤه، ويستجاب دعاؤه، وتسير حياته متدفقة بالنعمة والخير ينسى ما اعتزم عليه، ولم يأبه بمن مد يده إليه، ومن هنا تتعالى نداءات الإسلام موجهة إلى شكر الله الذى أنعم، ودافعة إلى النظر بعين الاعتبار إلى تلك النعم التى لا تحصى :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (١) .

وشكر صاحب النعم طريق إلى بقائها واستمرارها وزيادتها :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾(٢) .

وتتوالى تعاليم الإسلام فى إرساء قيم الحق، وصقل الشخصية الإسلامية وتهذيبها وعلاجها من ذلك الضعف الروحى، والتمزق النفسى، وذلك بالصبر ، والعمل الصالح ، والانطلاق من قاعدة العقيدة الصحيحة التى تشرق الحياة منها رخاء آمنة، قال الله تعالى :﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ

(١) سورة إبراهيم ، آية (٣٤) .

(٢) سورة إبراهيم ، آية (٧) .

ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾[1] .

وإذا كان الصبر وعمل الصالحات من وسائل صقل النفس، وتربية الشخصية، فإن هناك علاجاً آخر لروحه، ولقاء طيباً يتم فيه تخلص الإنسان من هلعه وجزعه، ومن جحده ومنعه، ذلك هو لقاء الله تعالى فى الصلاة التى تتكرر كل يوم مذكرة وموجهة فى كل ركن من أركانها بأن الله أكبر من كل شىء ، وكذلك فى القول والإنفاق، وفى التصديق بيوم الدين والخوف من الله وعقابه ومراعاة الأمانة والعهد والقيام بالشهادة ، كل هذه الأمور يلفت القرآن النظر والقلب إليها لتقويم الشخصية وتنقيتها من الهلع والجزع والجحود.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾

---

(١) سورة هود ، الآيات (٩ ـ ١١).

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ (١).

إن شخصية المسلم الحقيقية تملى عليه أن يتعرف على ربه فى وقت الرخاء كما يتعرف عليه فى وقت الشدة، فإن من كان كذلك فهو صادق الإيمان يستحق تيسير الله له وتفريجه لهمومه ، كما قال الرسول ﷺ : « **تعرَّفْ إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة** » .

وفتح الله سبحانه أبواب رحمته ، ونادى عباده إليها، وبين أنه قريب منهم، يجيب دعاءهم ويحقق رجاءهم ، وعليهم أن يستجيبوا لما يحييهم، ويقوموا بأصول الإيمان الحق ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾(٢).

***

(١) سورة المعارج ، الآيات (١٩-٣٥).

(٢) سورة البقرة ، آية (١٨٦).

# بين الجانب الحسى
# والجانب المعنوى

لشخصية المسلم جانبان ترتكز عليهما، وتتضح صورتها بهما، فأما الجانب الأول فهو الجانب الحسى: ويشتمل على ما يحتاج الإنسان من طعام وشراب وحركة وسكون وملبس ومسكن وما يظهر به من صورة وشكل.

وأما الجانب المعنوى : فيتمثل فيما يتخلق به المسلم من أخلاق وما يتعامل به من مُثل حية وقيم نابضة، وما له من عقل مميز واع، وقلب طيب كبير، وعاطفة معتدلة رحيمة وإذا ما فقد المسلم هذا الجانب المعنوى الأصيل فى بناء شخصيته ، فإنه حينئذ يصبح ظلاً لغيره يتحرك بحركته، ويسكن بسكونه فليس له تفكيره الخاص به، لأن انعدام الجانب المعنوى يترتب عليه ضياع الوجود المعنوى للإنسان وهو الوجود المهم الذى له أثره وخطره فى الحياة، فليس الإنسان جسماً ولحماً ودماً لا غير وإنما هو ـ إلى جوار ذلك ـ يشتمل على قلب مخلص كبير يصدق بربه، ويحمل معانى الخير فى داخله ويشتمل على عقلية خصبة واعية تنفتح للحياة وتؤثر فيها بكل ما هو نافع ومفيد وكل ما هو مصلح ومثمر.

إن ضياع الجانب المعنوى يجعل الإنسان ذيلاً لغيره، ويصبغ حياته بالذلة

والمسكنة ـ وإن كان يسكن فى أعظم القصور ـ ويجعله فقيراً ـ وإن كان يملك ما يملك أغنى الناس من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ـ ومن أجل هذا نجد أن الإسلام يعنى بتربية الشخصية على الجانبين معاً، ويخاطب صوت الحق أعماق الإنسان المسلم ليحيى قلبه وليكون رقيق الإحساس دقيق الشعور، بعيداً عن القسوة والغلظة، خاشعاً لله رب العالمين.

قال الله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾** ﴾ (١).

إن القلب هو المحرك الأول لهذا الجانب المعنوى، فضلاً عن الجانب الحسى ولذا فقد نبه رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على جانب القلب والعناية به، لما يترتب على صلاحه من صلاح سائر الجوانب وسائر الأعضاء ففى الحديث : « . . **ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب** »(٢).

إن ضياع الجانب المعنوى وما له من قيم روحية، ومُثل حية فاضلة يعمل

---

(١) سورة الحديد، الآيتان (١٦ ، ١٧).

(٢) رواه البخارى ومسلم.

على ضياع الإنسان وانحداره بشخصيته إلى الهوة السحيقة ، وكذلك فإنه إذا تمسك بالجانب الحسى البشرى وحده وتفاعل فى إطاره وتمثل كل مطالبه، فإن لهذا الجانب نزوات طائشة، وتصرفات توقف المجتمع على فوهة البركان ثم تسقط أفراده واحداً تلو الآخر فى الهاوية، وذلك لما يترتب على تمثل البشرية الحسية الضيقة والتعامل بنزواتها ونزعاتها من صراع بين الأفراد يؤدى إلى صراع بين المجتمعات وتنبت الأحقاد والأضغان وتنتشر الفتن الملتهبة، والأطماع المسعورة، والحروب الطاحنة، وعندئذ يختفى الأمن ، ويضيع السلام ويشتد الخناق على الضعيف ،وتسلب الحقوق، وتتهاوى القيم والمبادئ، ويتفنن الناس فى وسائل التدمير، وهكذا يضيع الفرد وتضيع الجماعة، ما دام الجانب المعنوى بقيمه مفقوداً بين الناس.

ولا سعادة للفرد أو المجتمع، إلا إذا تخلى عن طغيانه وجبروته أو عن ذلته وهوانه، وسار على منهج الحق الذى رسمه الإسلام صراطاً مستقيماً، قال تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (١).

---

(١) سورة الأنعام، آية (١٥٣).

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾ (١).

وفى ظل هذه المبادئ المعنوية، والقيم الروحية، تظهر شخصية المسلم فى حياتها الطيبة وكلها جد وعمل، وإشراقة وأمل ، تظهر بروح التعاطف والتآلف، عارفة بواجبها فى الحياة، فهى بعملها الصالح تحيا حياة طيبة، وهى بعملها الصالح تجزى يوم القيامة الجزاء الأوفى كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

وفى سبيل إقرار هذه المبادئ والعمل على إحلال الشخصية الإسلامية محلها اللائق بها، وضح الإسلام طريق الحق والخير والإصلاح ومهد السير فيه على هدى وبصيرة لئلا يكون للناس حجة، قال الله تعالى:

---

(١) سورة طه، الآيات (١٢٣-١٢٧).

(٢) سورة النحل، آية (٩٧).

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾[1]

***

(١) سورة الأنعام، آية (١٠٤).